ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٤ —

نحن فى اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبي العربى الذى بثّ الابتهاج والانشراح فى أرجاء بغداد ، وأنا أمضى إلى مدرج كلية الطب لألقى محاضرتى عن المصطلحات الطبية فأجد اسمى فوق اللوحة آخر الأسماء ؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريبات ليلى جاءت لتسمع محاضرتى فأحقد على منظم المنهج ، لأن هذه الفتاة قد تضجر فتنصرف قبل أن تسمع صوتى ، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل فى مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن ؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن ، فتصفق تلك الفتاة . وما أسعد الخطيب الذى تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصقولة الجبين !

رباه ! متى يُعقد المؤتمر الطبي مرة ثانية ولو فى الصين ؟ !

ويقوم سعادة الأستاذ على الجارم بك فيلقى محاضرته فى صوت مطلول كأنداء الصباح

ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندرى فيلقى محاضرة نفيسة جداً تضج لها الأرض وتطرب السماء ، ويصيح الدكتور القيسى : تحيا مصر ! تحيا مصر !

وأقبل عليه أشكره على التحية التى وجهها إلى مصر فيقول : كنت أظن الذكاء المصرى خرافة أذاعها المصريون . واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكياء وعلماء ، وقد تبددت الصورة المشوهة التى ارتسمت فى ذهنى بسبب الجوح الذى شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين في باريس

وأعتذر عن جوح شبابنا فأقول : لا تلم شبابنا على المرح والطرب ، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروح عن نفسه بتكلف السرور والارتياح . أما سمعت قول شاعركم الزهاوى فى مخاطبة أم كلثوم :

يا أم كلثوم إنّا أمةٌ رزحتْ تحت المصائب أحقاباً فسلّينا

ويجيء دورى فى الخطابة فأعتلى المنبر فى زهو وخيلاء . ثم يروعنى أن أرى الناس ينصرفون ، فأذكر أن الموعد حان للغداء فى مضارب بنى تميم ، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الغرق فى المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان !

ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنى متألم متوجع فيهمس فى أذنى أن المدرج لم تبق فيه فتاة واحدة. فأسأل: وكيف ؟ فيجيب بأن وعورة البحث الذى ألقاه الشيخ السكندرى أملّتْ جميع الفتيات فانصرفن عابسات . ويسرنى ألا تشهد فتاة هزيمتى فأقول : إلى الغد ، إلى الغد ، يا حضرات الزملاء !

وقبل أن أدخل فى تفاصيل ماسأراه ، أذكر أني زرت ليلى شفاها الله فى مساء ذلك اليوم فحدثتنى أن خطبة الشيخ السكندرى ملأت مسامع أهل بغداد ، ولكنها أنكرت أن يتحذلق الشيخ السكندرى فيقول :

إن الأوكسيجين مثنّى أوكسيج ، وإنه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء

فأصرخ فى وجه ليلى : هذا كذب ، هذا افتراء !

ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعابة ثقيلة أذاعها مصرى خبيث يقيم فى بغداد

ولم أنجح فى إقناع ليلى بأن هذا افتراء على الشيخ السكندرى إلا بعد أن هددتها بالغرق فى دجلة ، وليلى تحبنى يا بنى آدم ، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد

* * *

ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلنى إلى مضارب بنى تميم ، فلا أجد غير سيارة بالأجرة ، فأتردد ، لأنى لم أدخر درهما واحداً فى بغداد ، فقد أنفقت مالى على المطابع ، وعند الله جزائى

وأهم بالزهد فى الوليمة التميمية فأسمع صوتاً يقول : سيارتى فى خدمتك يا دكتور زكي . فأنظر فاذا طبيب لا أعرف اسمه ، ولو عرفته لشرفت به هذه المذكرات ، فأقول : ولكن بينى وبينك صديقان فضيلة الشيخ السكندرى والأستاذ عبد المنعم خلاف . فيقول : سيارتى فى خدمتكم جميعاً يا مولاى

وقبل أن أدخل فى التفاصيل أذكر أنى أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين : أما السبب الأول فلا أذكره ، وهو يعرف ما أعنى . وأما السبب الثانى فهو أن الشقّ يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحى : الوحى الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى مبارك يكتب ثلاث مقالات في كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت الشقى قبل أن يعرف مصدر الوحى . وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا

كيف اســتطاع الدكتور زكي مبارك أن يكون أصدق من استرقّتْ بغداد

ونمضي في السيارة على غير هدى في صحبة الطبيب النبيل الذي ينقلنا إلى مضارب بني تميم ؛ ثم نتلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا في رحاب عقرقوف الذي خلّد اسمه أبو نواس في رحلته إلى مصر ، مصر التي فيها الزمالك ومصر الجديدة وحلوان ، والتي تسدل ستائرها على الجدائل المعطرة التي تشعثت بعد رحيلي إلى العراق

رباه ! إنك تعلم أن الظلام في مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج ، فمتى ترجعني إليه !

ونصل إلى مضارب بني تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحيوننا بأناشيد كلها رفق وحنان . وفي زحمة الاحتفال يجيء طبيب نبيل فيدعوني للتسليم على سيدتين كريمتين ، لا أذكر اسمهما تأدباً ، ولو شئت لقلت إنهما من النفحات الربانية ، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية في بغداد . فإليهما أقدم تحيتي وثنائي ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . ويمد السماط ، أو السماطان ، أو الأسمطة ، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل

ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق في المرق ، فيصيح الطفل الجميل الذي اسمه عمر : بابا ، بابا ، أحب أن أطمئن على الدكتور زكي مبارك . فيقول سعادة وزير مصر المفوض في العراق : اطمئن يا بُنيّ ، فان الدكتور مبارك من كبار السابحين !

ويقف عميد بني تميم ليخطب فيشتد التصفيق ؛ ويقف الشيخ السكندري ليخطب فيشتد الهتاف ؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهوري : الدكتور زكي مبارك يلقي كلمة العراق ، فيتلفت وزير المعارف قائلا : ما ذا ؟ ما ذا ؟ فيجيب الصديق الكريم : الدكتور زكي مبارك يخطب باسم العراق : فيقول معالي الوزير : نعم ، نعم ، من حق الدكتور زكي مبارك أن يخطب باسم العراق

وألقي خطبة رنانة أشكر فيها إخواني المصريين وأقول إن حياتي طابت في العراق وإنني لا أحب الرجوع إلى مصر . فأرى دموع الشيخ السكندري تتحدر وأسمعه يقول : وهل نسيت سنتريس ؟ !

فأقول بصوت ساخب : ونسيت سنتريس !

ومن واجبي أن أسجل في هذه الذكرات أني لم أر في حياتي أياماً أطيب من أيام العراق . وسأظل من أنصار العراق فيما بقي من حياتي . حيّا الله العراق ، ونصر الله العراق !

* * *

أما بعد فنحن في منتصف الساعة التاسعة من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال . وهذه سهرة في نحو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور شوكة الزهاوي . وهذا الدكتور زكي مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون ، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين . ولكنه يرى الطبيب النبيل الذي سيقبل من أجله ثرى بغداد يوم يفارق بغداد ، فيستشير صديقه فيما يأتي وما يدع ، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين : قسم عربي وقسم أفرنجي ، فأقول : النبي عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي

وأمضي إلى القسم العربي فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم نخامة الرئيس . وأخرج عن وقاري فأمضي إلى رئيس الوزراء وأقول : سيدي ، أتسمح بأن أسجل في مذكراتي أن إيثارك الجلوس في المرقص العربي هو في ذاته تزكية نبيلة للثقافة الذوقية في حياة العروبة ؟ فيبتسم ابتسامة القبول

وأعود إلى مكاني وأجعل قلبي كله للمرقص ، وما هو في الحقيقة بمرقص ، ولكنه مَغْنى كما يعبر المصريون . وأنظر فإذا فتاة مليحة جداً تجلس بين القيان وعليها سيما الدَّل ، فيزعجني أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس ، فأنظر إليها بترفق وأرفع الكأس ، فتنظر بحنان وترفع الكأس ، ولا يكفيني ذلك ، بل أصنع الصنيع نفسه مع سائر القيان ؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقاره فيقول : يا دكتور مبارك ، إن مكانك قريب جداً من نخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى من مداعبة القيان ، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك

فقلت في عبارة صريحة : إن ما أصنع هو الذي يليق بمقامي

فتلعثم الرجل وقال : لطفاً يا سيدي ، لطفاً ! ولكن هل أستطيع أن أعرف جوهر رأيك في هذه القضية ؟

فقلت وأنا أجدّ كل الجدّ : لستُ يا سيدي بفاجر ولا أثيم وإنما أنا رجل مؤمن ، ومن واجب المؤمن أن يتوجع لآلام المنكوبين ، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين أبشع نكبة قاستها الإنسانية ، فهنّ مسئولات عن الوصول إلى قلوب الناس . ويا ويل مَن يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعته أن يُرضي الناس ؛ والناس يا سيدي يغلب عليهم اللؤم فلا يقابلون من يخطب

رضاهم بغير الجحود، فهل يسوؤك وأنت عراقي كريم أن أكون من الكرماء؟ هل يسوؤك أن أُدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضاي ورضاك؟

فهدأ الرجل قليلاً ثم قال: وما رأيك في هذا؟

فقلت: وما هذا؟

فقال: أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها في وقاحة وسفاهة؟

فقلت: نعم رأيت، ثم رأيت؛ ولكن من اللوم؟ إن الراقصات يعرفن أن فينا الغويّ والسفيه والمجرم، فهن يتقربن إلينا بتزيين الرجس والدعارة والفحش. ولو كنّ يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق

ويقوم المغني المطرب محمد القومباجي فينشد:

أأحبابنا قد فرّق الدهر بيننا

فأصيح: قد جمّع الدهر بيننا

فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال

وأنتقل من مكاني لأرى كيف تموج الدنيا في المرقص الأفرنجي فأعثر على الراقصة التي كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات، وأحييها فلا تردّ التحية، كأنها ظنت أنني كنت في مداعبتها من الماجنين

إنني أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة، ويسرني أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش. ولا أستثني نفسي فلتحذري وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس

طوّفت بالمرقص الأفرنجي لحظات لأرى صاحبة العينين، ولم أجدها فأين ذهبت؟ أين ذهبت؟ دلوني فقد عيل صبري. وفوق أي خدّ نام ذلك الخد الأسيل؟ يرحمك الحبُّ يا قلبي!

* * *

تحيا انجلترا!!

كذلك قلتُ، فدهش السامرون

تحيا بريطانيا!!

كذلك قلتُ، فتعجب السامرون.

تحيا بريطانيا العظمى!!

كذلك قلتُ، فضجّ السامرون

ومالي من ذنبٍ إليهم علمتهُ سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي

نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي ثلاث تحيات وإن لم تكلمي

لقد كنت من أعضاء الحزب الوطني، وكنت من أوفى الناس لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش. وكنت أذيع مبادئ الحزب الوطني بلباقة في الجرائد الوفدية، وكان الوفديون يعرفون صدقي وإخلاصي ونزاهتي فيتسامحون ويدعونني أذيع في جرائدهم ما أشاء. ولما أُمضيت معاهدة التحالف بين انجلترا وبين مصر قررت أن أؤلف كتاباً أدعو فيه المصريين إلى أن يتذكروا دائماً أن انجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال

فما الذي جدّ في أفق السياسة حتى أهتف بحياة انجلترا في بغداد؟

ما الذي جدّ حتى يتغير زكي مبارك الذي أضاع نفسه في مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التي تملك مصاير الأمور في أكثر الشؤون؟

فقد كنت ألمح من بُعد فتاة تسارقني النظر بعينين زرقاوين، وكنت لا أملك الانتقال إليها ولا تملك الانتقال إليّ؛ وكان جاري رجلاً ظريفاً كسائر البغداديين، فترك مقعده عمداً لأستطيع دعوة الفتاة إلى جواري. ولم تنتظر الفتاة الدعوة، فما هي إلا لمحة طرف حتى كان وجهها إلى وجهي، وكلمتني بالانجليزية فلم أفهم، فاستوضحتها بالفرنسية فلم تفهم، فقالت بلسان عربي ملحون ما معناه: أرجوك أن تطلب من سليمه باشا أن تغنّي:

على بلد المحبوب ودّيني

ودار الصوت على الحاضرين ويدها في يدي، وعينها في عيني؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم يسجلوا غير الجميل

وبعد لحظات همّت الفتاة بالانصراف، فجذبتُ يدها أقبلها فسمحت بعد تمنع واستحياء

ولم يكُ غير موقفنا فطارتْ بكل قبيلةٍ منا نَواها

فواهاً كيف تجمعنا الليالي وآهاً من تفرقنا وآها

* * *

ثم يجيء اليوم الخامس فألقي محاضرتي في كلية الطب، وأعربد على الدكتور عبد الواحد الوكيل وعلى الأطباء المصريين، وأزعم أن أساتذة الطب في مصر من أكسل الناس، ولولا ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية. ويصفق الحاضرون، ويقبل الجارم لتهنئتي فأقول: أنا تلميذك. فيقول: لقد بذذت أساتذتك.

ويجيء المساء فأذهب إلى الحفلة التي تقيمها الجمعية الطبية المصرية، فأراها وا أسفاه حفلة مصرية حقاً وصدقاً، فلا شراب

ولا رقص ولا غناء ، فأقول فى نفسى فضحتمونا يا ناس !

ولـكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقى خطبة يقول فيها إن الجمعية الطبية المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتى أقامها معالى أمين العاصمة ، أو حفلة كالتى أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية ، فقررت أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغنّى فيها البيان

الله أكبر ! الله أكبر !

وكذلك قضينا ثلاث ساعات فى سماع الخطب والقصائد ، ثلاث ساعات قضيتها فى كرب ، لولا الخطبة الظريفة التى ألقاها سعادة المشاوى بك ، ولولا الوجه الأصبح الذى كنت أتعزى بالنظر إليه

* * *

ويجيء اليوم السادس وهو رحلة إلى الســـدة الهندية وأطلال بابل

وأصل إلى القطار فى آخر ثانية ، فقد كنت فى شواغل غرامية عاقتنى عن مراعاة الموعد ؛ ولـكن حظى كان سعيداً ، ولا أذكر كيف ، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصِّباح . ويمر القطار على قرية اسمها الاسكندريه فأقول : لعل هـذه هى البلدة التى ينسب إليهـا أبو الفتح الأسكندرى الذى يروى عنه عيسى ابن هشام فى مقامات بديع الزمان ؛ وأملأ عينى من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة فى الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفنى)

ثم يقذفنا القطار إلى السدة الهندية ، وليتنا غرقنا هناك !

والسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات ؛ وللفرات فيها هدير جذّاب يذكر بهدير النيل على الرياح المنوفى بالقناطر الخيرية . وقد وقفت على السدة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطني ، إن كان لى إلى أرض الوطن معاد

لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة ، فقد كنت غريباً فى كل أرض حتى فى سنتريس !

لا تحزن يا قلبى ، فأقرب النـاس إلى الله هم الغرباء ، لأن الغريب يؤدى امتحاناً فى كل لحظة ، وتدرسه العيون فى كل مكان ، ويؤدّى حساباً إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يُفسد المفترون

لا تحزن يا قلبى ، فكل غيم يتلوه صَحْو ، وكل ليل يعقبه صباح .

لا تحزن يا قلبي ، فأما بجانبك أرعاك وأواسيك ، وسأكفنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب

لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبي !

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع ؟

والى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ الى أين يا جاهل ؟ فأنت تجمح الى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو الهوى ، وكيف تُقرع الـكأس بالـكأس ، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث . الى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ وهل لك وطنٌ أيها القلب ؟

حدثني أين وطنك فقد نسيت ! أيكوّن وطنك بين تلك القلوب الغوادر التى تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس ؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التى قطعت حبل الودّ لأنى دعوتها لزيارتك متنكرة فى بغداد ؟

أين وطنك يا قلبي ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك اليه . أهو مصر ؟ كذبت ، ثم كذبت ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لـكان لك اليوم مكان مرموق ، ولـكنك فى مصر منبوذٌ مجهول

قلبى ! قلبي ! رحمةُ الله عليك ، فقد سمد ناس بالرفق المزيف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح

وقد وصل ناسٌ لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت .

ونَعِمَ ناسٌ لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك وفيت

وتقدم ناسٌ لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جدَدْت .

وانتفع ناسٌ لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت

قلبى ! قلبى ! أحسن الله إليك !

أنظر يا جاحد ! فها نحن أولاء فى رحاب أسد بابل ؛ وهذه صاحبة العينين . نعم هذه صاحبة العينين ، أما ترى يا قلبى ؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تُنسّحى زوجها بعنف لتظهر فى الصورة بجانبك ؟ اعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر فى صورة عالية فى رحاب أسد بابل وفى جوار صاحبة العينين . اعترف يا جاهل بأنك كنت فى إحدى لحظاتك أسعد القلوب

مولاتي صاحبة العينين :

أعترف بأنى آذيتك بعض الإيذاء ، أو كل الإيذاء ؛ ولـكن الشاعر مغفور الذنوب ، لو تعلمين ؛ وقد قرأ النـاس مذكراتى

فى مجلة الرسالة فعرفوا من أنتِ . فهل أطمع يوماً فى أن تعرفى من أنا ؟ وهل يعرف زوجك المفضال أننى شاعر لا يهمه غير أنس الروح بالروح ؟

المهم عندى يا مولاتى أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبتْ لنـدن وباريس وبرلين ، وأن فى بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والاسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والمقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء

مولاتى صاحبة العينين :

لست بالرجل الفاجر ، كما يزعم المرجفون ، وإنمـا أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبِّب العرب فى بلادهم بالاشادة بما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق

فهل أستطيع أن أمرّ على بلدكم الجميل فى طريقى الى مصر ، مصر التى فيها الزمالك وحلوان ؟ مصر التى فيها شارع فؤاد ، والتى فيها الزيات ومحمد الهراوى ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذى اسمه عبـد الله حبيب ؟ مصر التى فيها أحمد فريد رفاعى وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؟ مصر التى فيها المكتبة التجارية والجامعة المصرية ؟ مصر التي فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد ؟

مولاتى صاحبة العينين :

أنا أشرف من العصابة التى حرستْك منى ، فاسمحى لى بتقبيل قدميك قبل أن أموت ، ولـكن ... ولـكن ...

ولـكن أينسينى حديث العينين وصاحبة العينين ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية ؟

إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل ، فقد كان المفروض أن يحلق فى الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبى ، وكان المظنون ألا تظهر هـذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء

ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشينا ألا يمر ذلك اليوم بسلام

وما كان يهمنى أن أشترك فى هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها فى كتاب ذكريات باريس ، ولـكني رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات ، ثم هالنى ألا أرى غير جماعات من « الخناشير » كلهم شُعثٌ غُبرٌ كأنهم قدموا من البيداء ، ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع

ومع ذلك صممت على الاشتراك فى هذه النزهة ، ولـكنى لم أفلح ، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش

ورجعت أتعثر في أذيال الخيبة فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلا يقول :

— أتريد أن تطير يا دكتور ؟

— نعم ، يا سيدى ، أحب أن أطير !

فدعانى إلى سيارته فركبت ومضينا الى ناحية قصيّة فطاب طيارة وقال : « هذه فى خدمتك فادع الى مصاحبتك من تشاء » فنظرت فإذا سيدة « تائهة » فأخذتها معى وطرت

وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها فى انتظارى فركبت معه الى المقصف وأجلسنى مع جماعة من الضباط ، ثم قال بعد تناول الشاى والحلوى والفاكهة : « خذ حريتك يا دكتور وطوِّف حيث شئت »

فلما تركته كان أكبر همى أن أعرف من هو ، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزى باشا رئيس أركان الجيش

ومع هذا يعجب ناس حين يرونني أطيل القول فى الثناء على العراق وأهل العراق

* * *

انتهت أيام المؤتمر ، سقاها الغيث ، ولـكن جداً ما لم يكن فى الحسبان ، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هى المدينة التى وُلدت فيها ليلى المريضـة فى العراق . وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل ، ولـكن ليلى لم تحدثنى عن وطنها الأول ، ولم أسأل عنه ظمياء ، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضى مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى الندى بالعطر والريحان ، الثرى الطاهر الذى عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القد الرشيق

إلى وطنك ياليلاى ، الى البصرة ، الى النخيل ، الى شط العرب الذى تحترب فى سبيله أمم وشعوب ، الى وطن الجاحظ ، الى وطن المبرد ، إلى وطن مولاى الحسن البصرى أمتطى القطار فى ظلام الليل

« للحديث شجون »

زكى مبارك